تزكيها صحائف مطوية :

المساجد الجامعـــة

وأثرها فى حياة المسلمين وتربيتهم الدينية

للأستاذ أحمد رمزى

أول مايو ١٩٣٣ بانفرة . طيف وفلسفة ثورة :

كانت دعوة غداء شائقة تلك التى أقامها الأستاذ الكبير بد بك السلحدار ، وهو قائم بأعمال المفوضية الملكية المصرية ة ، لشرف حمد الله صبحى بك ، وزير تركيا المفوض فى نيا بمناسبة وجوده بالعاصمة التركية ، فجلس فى صدر المائدة يمينه الوزير المحتفى به ، وأمامه السيدة زوجة روشن أشرف ، وعلى يمينها صاحب السمو الملكى الأمير زيد بن الحسين وزير ق المفوض بتركيا ، ثم تلا ذلك ترتيب مقاعد غيرهم من وين . وامتازت هذه الدعوة على غيرها من الدعوات ، بما فيها من الأحاديث الشائقة التى اهتم كل من الحاضرين بتتبعها صغاء إليها ، وحرصت من جانبى على تدوين بعضها .

وكان ذلك فى يوم الاثنين الموافق أول مايو سنة ١٩٣٣ ، لكن اختيار هذا اليوم بالذات موضع تفكير وإنما جاء وليد دقة . وما أدراك ما أول مايو ، هو يوم عيد لطوائف العمال مختلف الأجناس والألوان ، علمنا يتقدمه من العلم الأحمر الذى كان يرفرف على بناء سفارة السوفييت ، إذ كانت حكومتهم أول دولة اعترفت رسمياً بهذا العيد وكانت بنايتهم أمامنا .

أما وكالات الأنباء والإذاعة فأخذت تتحدث عن الاجتماعات والخطب والمظاهرات التى سينفرد بها أول مايو . وأذكر أننى اعتكفت فى صباح ذلك اليوم فراجعت بعض مؤلفات « كارل ماركس » وصاحبه « انجل » وقلبت بين يدىّ صفحات مما كتبه رأس الثورة الروسية « لينين » وكنت مشغوفا به لدرجة أننى بحثت عن المنزل الذى كان يقيم به فى مدينة زوريخ من مدن سويسرة الألمانية ، وتعرفت على المقعد الذى كان يجلس عليه فى قاعة المطالعة بمكتبة جامعتها ، ولكثرة ما قرأت عنه وعن حياته لم تعد شخصيته غريبة عنى ، وكان من تكرر ما رأيته من صوره فى أوضاع مختلفة أن ثبتت صورته فى مخيلتى ، فإذا وضعت ذلك بجانب الكتب التى قرأتها عنه بمختلف اللغات صدق قول الأديب العربى : « والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره » فهو أمامى كلما تلوت فى كتبه ، برأسه الكبير وعينيه الصغيرتين الحادتين وفمه الجبار وبروز عظمتى الوجنتين وهذا الإسم الذى يحمله[1] ، أجدها دائماً مشاهد تؤكد لى أصله الأسيوى المغولى المنحدر من سلالة الفاتحين التتار الذين سادوا أنحاء روسيا مدة قرون طويلة ، وصبغوها بلونهم وتركوا فيها آثارهم ودماءهم . وليس فى هذا ما ينقص من قدر الزعيم الروسى والمعلم الشيوعى ، إن لم يكن فى ذلك ما يزيد من قدره وما يرفع من شأنه كبطل أسيوى عالمى .

قلت خلوت صباح ذلك اليوم لنفسى وأطلقت لها العنان تحلق كما تشاء ، فأخذت أنتقل بالمطالعة من كتاب إلى كتاب غير مقيد بنظام أو قاعدة ، والوقت يمر سريعا حتى وقع ناظرى على جملة تقول : « هذا عصر تنظيم الجماعات وقيادة وتوجيه الحركات الشعبية الكبرى ، عصر عمل ونشاط وخلق وتصميم أكبر مظاهره سيطرة الإنسان بيديه القويتين على قوانين الطبيعة وإخضاعها لمشيئته وإرادته . تعالوا إلى الفلسفة المادية وارجعوا إلى المنهج التاريخى لكى تتفتح أذهانكم لآفاق بعيدة . إننا لا نؤمن بالعاطفة إلا إذا احتجنا اليها لمحاربة الجمود والرجعية ولتحطيم الأصنام المزيفة . »

والكتاب لطيف الحجم لا يتجاوز مائة وخمسين صفحة من ب اللغة الإنجليزية الصغيرة ، ولكنه واف بموضوعه متقن دائه واستدلاله ، ولا نعده من كتب التبشير التى تراد بها وة بين الأمم الأوربية وكفى ، فقد يحتاج المسلم لقراءته والتأمل سراميه ، ليعلم أن المذاهب المادية والدعوات السياسية التى خض عنها أفكار المبشرين بالإصلاح فى أوربة وأمريكا لا تحتوى أسانيد الإقناع ما هو أقوى وأجدر بالتأمل من هذه الأسانيد .

عباس محمود العقاد

(١) أولو يانوف . والجزء الأول منه تترى .

إيمان تظهره جرأة ، وجرأة يدعمها علم :

وبينما أنا أقرأ هذا الكلام ، إذ قرع حاجب الفوضية الباب ودعاني لاستقبال الضيوف مع أستاذنا الكبير ، فقمنا للترحيب بهم . وبعد برهة اجتمعوا ودخلنا حجرة المائدة ، وقد رتبت أحسن ترتيب يدل على ذوق الداعي واهتمامه بالصغيرة والكبيرة من تنسيق واختيار وتدقيق في كل ما يقدمه لضيوفه . وما بدأت الخدمة حتى أخذ الحديث حمد الله صبحي ضيف الشرف ، وهو محدث من الطبقة الأولى يتناوله بأسلوب عذب وصوت هادىء ويعبر عن آرائه بالفرنسية وبالتركية ، فتكلم عن أمور مختلفة ، وأشياء متعددة ، ولفت الأنظار حينما أخذ يتحدث عن حياة المسلمين في رومانيا ، فأحاط بما هم عليه في وقته وما كانوا عليه في الماضي وما تنبأ لهم به في المستقبل ، وأشار إلى اللغة المستعملة في رومانيا وكيف تأثرت بالألفاظ التركية التي امتزجت بها ، وكثير من هذه الكلمات عربي الأصل ، دخلت وأصبحت من لغة يتكلمها الملايين من الناس ، ثم عدّد مساجدهم وعلماءهم وما هم عليه من التمسك بدين الإسلام وما يلقونه من حرية العقيدة والتسامح في القيام بشعائرهم الدينية ، بغير حرج ولا ضغط عليهم .

ثم رأيته انتقل فجأة لموضوع شائك وعر المسلك لا يجرؤ أحد من الأتراك أن يخوض فيه وقتئذ ، فقال : « إن الدين لازم لكل أمة وفي كل عصر » ثم استشهد بعقلية الشعب اليوناني الحديث ، فقال : « إن هذا الشعب الذي يجاورنا ونجاوره ويعاصرنا ، يستمد إلهامه ومثله العليا من ثلاثة منابع : تاريخه القديم ، وعصر بيزنطة والدين الأرثوذكسي . فهذه دعائم ثلاث لتفكيره ولمثله العليا ولحياته » .

وهنا التفتت السيدة زوجة دوشين أشرف بك ، وكان زوجها نائبا بالمجلس الكبير ثم وزيراً مفوضا وسفيراً ، وهو كاتب من ألمع كتاب الأتراك وأدبائهم ، وسبق أن شغل منصب الأمين العام لرئاسة الجمهورية في أول عهد الغازي كمال أتاتورك ، فأبدت الكثير من الشك في أقوال الوزير التركي وكان مما قالته : « هناك أشياء أخرى غير الدين ومبادئه ، تستلهمها الأمم في حياتها وجهادها ونهضتها ، ثم ما هو الدين ؟ أليس هو المثل الأعلى الذي يكونه الفرد منا لنفسه » ، وعبرت عن المثل الأعلى باللفظ التركي المستحدث .

أما حمد الله بك فاستمر في حديثه لا يبالي بالرد على ما يوجه إلى كلامه من اعتراض ، وكان صوته يعبر عن إيمانه العميق وشعوره بالألم والحسرة ، فخرجت كلماته وهي تلهب الصدور ، ولذلك بقيت عالقة بأذني ، قال : « نحن معاشر أهل الإسلام في أشد الحاجة إلى ما أسميه تربية المسجد ، وأقول بكل أسف إن المسجد لا يلعب في حياتنا الدور الذي تقوم به الكنيسة في حياة النصراني أو المعبد في حياة الإسرائيلي ، ونحن أحوج ما نكون إلى رجال الدين الذي يوفّق بعلمه وروحه وشخصيته وجرأته لأن يحيط المسجد أو الجامع بهالة من القدسية والاحترام ، وأن يتخذه مركزاً لعمله الروحي والاجتماعي ، الرجل الذي يمكن أن يطمئن الناس إليه في تربية النشء وتثقيفهم وتلقينهم قواعد الدين الصحيح وأسسه وفضائله . إن المساجد بيوت الله وبيوت العبادة وبيوت المسلمين فيجب أن تتجه أنظارهم إليها وأن تجمعهم وقت الصلاة وفي أعيادهم ومناسباتهم المفرحة والمحزنة ، وأرى أن تربية المسجد عنصر أساسي من عناصر نهضة المسلمين » .

وأخذ يشرح هذه الناحية بوجهة نظر جديرة بكل اعتبار وتقدير ، ويؤيدها بمنطق الرجل المسلم الشاعر بأهمية العمل الروحي ، والمؤمن إيماناً لا يتزعزع بقوة المبادىء والدوافع التي قامت عليها الرسالة المحمدية .

وكنا نشعر وقتئذ بما بين تركيا وروسيا السوفيتية من علائق الود والصفاء والتحالف ، وكنا نعرف أشياء عن محاربة البلاشفة للعقائد ولنظام الأسرة ، وكان الأتراك يقلدون الروس في أشياء ، ولكن حمد الله بك صرح بما يعتقد أنه الصواب بقوله « لا يمكن لمجتمع بشري يحترم نفسه أن يحارب الأسرة ، إذ هي الرابطة الأساسية الأولى التي تصل بين الفرد والمجتمع وبين الطبيعة والبشرية وبين المادة والروح » .

كنا نستمع إليه جميعاً ونحن نسلم بأن هذه الكلمات تخرج من وحي إيمانه وعقيدته فهي ليست من قبيل المجاملة ، بل نتيجة

يريطويل ورأى ناضج . وكان يتحدث عن الشعب التركى حديث يفيض قلبه بمحبة هذا الشعب الإسلامى الكبير ، كما يتحدث عن أعز بنيه أو أحب شيء لديه . وكان وطنياً بغير تعصب ، يأ مع سعة صدر . واذكر أنه ختم كلامه بقوله : « ليس أصعب السياسى أو التصدر لقيادة نهضة أمة وهى فى غمرات تحررها لتها ، من أن يلقنها كيف توفق بين الشعور بالوطنيـــة حيحة ومراميها وأهدافها المشروعة وما يلابسها من حماسة ف ، وبين الإيمان بمحبة الأمم الأخرى والأخذ بالتساهل والشعور بأهمية العمل فى حقل التعاون الدولى وما يتطلبه تفاهم وتساند » .

إن قليلين من رجال السياسة الذين استقبلوا حوادث الزمن زوا هذه النظرة ، وأن هذا المبدأ من المبادىء التى تحاول أن ها الأمم بعد الحرب العالمية التى انتهت أخيراً ، ولكني أنقلها ى من مذكرات عام ١٩٣٣ .

، فهو الرجل ؟

ى هنا انتهى حديثه ، وانفض بعد ذلك جمع أناس من أهل ، والفضل ، كان أستاذنا الكبير توحيد بك السلحدار يعرف ب يجمعهم فى دار المفوضية ، حينما مثل مصر تمثيلا عالياً ورفع بأنها ، وجعلها موضع احترام الأمة التركية وحكومة الجمهورية ، ن أول ممثل لدولة أجنبية جاء إليه رئيس الدولة ، وعُدّ ذلك لأتراك ورجال السلك الأوروبى وبين من يفهم من الناس ، بر توفيق حصل عليه ممثل دبلوماسى لمصر منذ أنشئت ت سياسية بين المملكة المصرية والجمهورية التركية .

وتعجب معى كيف يتحدث حمد الله صبحى بهذه الشجاعة ب يجاهر بآراء لا تتفق مع الرأى السائد لدى السلطات العليا يا ، ولكن الرجل القوى المخلص لمبادئه لا يبالى بأن يجهر ول وبما يشعر ، وكان حمد الله بك عالماً فاضلا ، والعلم قوة دافعة ع على صاحبها شجاعة وجرأة وثباتاً ، وكان تاريخه نقياً صافياً ، خدم بلاده أجل الخدم ، يوم كان زعيما لحركة « التورك نى » وهى التى أيقظت غريزة الشعور القومى لدى شباب الأتراك ، ونفخت فيهم روحاً جديدة ، ومهدت الطريق لثورة مصطفى كمال التى قادتهم إلى حرب الاستقلال ، فهو رجل من صميم الشعب ، خرج من صفوفه وأمضى السنوات يعلّم الشعب ويلقنه ويقوده ، ولما اختلفت وجهة النظر بينه وبين الغازى سلّم لرئيس الجمهورية مقاليد الحركة ، التى أمضى عشرات السنين فى بنائها وقنع بمنصب دبلوماسى خارج بلاده ، ولكنه يحن إلى الشعب التركى ويتحدث بفضائل الإسلام ويأبى أن يفرق بين الترك والإسلام ، ويجاهر بما يعتقد ولا يخشى إلا الله ، وتلك منزلة لا يرقى إليها كل الناس كما نعلم ونلمس لدينا .

كان ذلك فى عام ١٩٣٣ وها نحن فى عام ١٩٤٦ ، وقد مضت السنوات وتغيرت الأيام ، وتبدلت الأوضاع ، وبينما أكتب مقالا للرسالة عن مساجد الفسطاط ، وجدت مجلداً من مذكراتى اليومية ، فإذا أنا أمام حديث حمد الله بك عن تربية المسجد . فرأيت أن أنقله كما هو وأن أعلق عليه بما دار فى خلدى طول السنين الماضية ، وأجعله تتمة لحديث الفسطاط ودمعتها الغالية على مساجدها وآثارها .

* * *

« يأيها النبى بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس » (المائدة)

بهذه الآية الكريمة خاطب الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وأدى النبى رسالته ، فهل اتبع المؤمنون سنة رسولهم ، وقاموا بتبليغ الأمانة التى حملوها فى هذا العصر الذى نعيش فيه ؟

إن الرسالة المحمدية للعالم قائمة ، فإذا أدّاها أصحابها ، نشروا بين الخلق تعاليم ومبادىء ودوافع تنفخ فيهم روحاً جديدة ، وتكون كشعلة لا يلبث ضياؤها أن يزيد يوماً بعد يوم حتى تعم أجزاء الأرض فتؤثر فى حركة العالم وسيره وتطوره ، وفى تكاتف الأمم وتساندها وإخراجها من الظلمات إلى النور .

هذا هو إيمان كل مسلم دخل فى زمرة طائفة المؤمنين ، وهذه آماله نعبر عنها ، ونحن على ثقة منها ؛ ولكن كيف الوصول إلى تحقيق ذلك ؟

(البقية فى العدد القادم)

أحمد رمزى
القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان